الباب الرابع

الجهاد بالنفس

"القتال"

فُرض القتال ، وهو الجهاد الأمثل ، وعندما يقال الجهاد فإنما يتبادر إلى الذهن القتال وهو الصحيح ، ولوكره المنافقون . فالنفس أغلى شيء عند المخلوق، والتضحية بها ، والجهاد بها أسمى أماني المؤمن ، قال تعالى : ﴿**ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رؤوف بالعباد**﴾[1]. صحيح أن الجهاد بالمال قد قُرن مع الجهاد بالنفس في كثيرٍ من آيات كتاب الله : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ...**﴾ [2].

﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله ...**﴾ [3].

﴿ **لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات ....**﴾[4].

﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ...**﴾ [5].

﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليم تؤمنون باله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون ...**﴾[6].

﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في**

---

(١)سورة البقرة : الآية ٢٠٧ ، ويشري : يبيع .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٧٢.
(٣) سورة التوبة : الآية ٢٠.
(٤) سورة التوبة : الآية ٨٨.
(٥) سورة الحجرات : الآية ١٥.
(٦) سورة الصف : الآية ١١.

سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾[1] .

غير أنه عندما يكون الجهاد بالنفس (القتال) فرض عينٍ فما يُفيد الجهاد بالمال ، وما ينفع الجهاد بالدعوة ، وما يُجدي الجهاد بالصبر على الأذى وتحمّل الشدّة . وكان صحابة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، الأغنياء ينفقون الكثير ، ولم يخطر ببال أحدهم أن يقعد ، أويتخلّف عن الغزو ، على أن ما أنفقه يُغني عنه ذلك . عن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قال : أمرنا رسول الله ﷺ ، أن نتصدّق ، ووافق ذلك مني مالاً ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكرٍ ـ إن سبقته ـ قال : فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : (ما أبقيت لأهلك ؟) قلت : مثله . وأتى أبو بكرٍ بكل ما عنده . فقال : (يا أبا بكرٍ ما أبقيت لأهلك ؟) قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت لا أسبقه إلى شيءً أبداً[2] . فهل كان هذا يكفيه رضي الله عنه ؟ وحضّ رسول الله ﷺ ، أهل الغنى على النفقة في سبيل الله لتجهيز غزوة تبوك ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقةً عظيمةً لم ينفق أحد مثلها ، فقال رسول الله ﷺ :ـ اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راضٍ) .

وندب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الناس إلى الخروج ، وأعلمهم المكان الذي يريد (تبوك) ليتأهبوا لذلك ، وبعث إلى مكة و إلى قبائل العرب يستنفرهم ، وأمر الناس بالصدقة ، وحثهم على النفقة والحُملان ، فجاءو ا بصدقاتٍ كثيرةٍ فكان أول من جاء أبو بكر

---

(١) سورة النساء : الآية ٩٥ .

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي .

الصديـق ، رضي الله عنـه ، فجاء بماله كلـه (٤٤٠٠٠) درهم ، فقـال له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : (هـل أبقيت لأهلك شيئاً ؟) ، قال : أبقيت لهم الله ورسولـه . وجاء عمر رضي الله عنه ، بنصف مالـه ، فسأله رسول الله ﷺ : (هل أبقيت لهم شيئاً ؟) قال : نعم ، نصف مالي . وجاء عبدالـرحمن بن عوف ، رضي الله عنه ، بمائتـي أوقية . وتصدّق عاصـم بن عدي بسبعين وسقاً من تمرٍ ، وجهّز عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، ثلث الجيـش ، وجهّزهـم بتسعمائةٍ وخمسين بعيراً ، وبخمسين فرسـاً . قال ابـن إسحاق : أنفق عثمان ، رضي اللـه عنه ، في ذلك الجيش نفقـةً عظيمةً ، لم ينفق أحد مثلها . وقيل : جاء عثمان ، رضي الله عنه ، بألف دينارٍ في كمّه ، فنثـرها في حجـر رسول الله ﷺ فقلّبهـا في حجره . وهـو يقول : (مـاضرّ عثمان ما عمل بعد اليـوم) . وقال رسـول الله ، صلى الله عليـه وسلم : (من جهّز جيش العسرة فله الجنّة).

وعن عبـد الرحمن بـن خبّاب ، قال : شهـدت النبيّ ، صلى اللـه عليه وسلـم ، وهو يحثّ على جيـش العسرة . فقـام عثمان بـن عفان ، فقـال : يارسول اللـه ، عليّ مائة بعيرٍ بأحلاسهـاوأقتابها في سبيل الله ، ثـم حضّ على الجيـش ، فقـام عثمان ، فقـال : يـارسـول اللـه ، عليّ ثـلاثمائة بعيرٍ بأحلاسهـا وأقتابها في سبيل الله . فـأنا رأيت رسول اللـه ، صلى اله عليه وسلم ، ينزل عن المنبر ، وهو يقول : (ما على عثمان ما عمل بعد هذه ، ما على عثمان ما عمل بعد هذا[1] .

فهل يغني هؤلاء الصحابة ، رضوان اللـه عنهم ، ما أنفقوا ؟ لقد كانوا في أول الغزاة إذا لا تسدّ النفقة مهما بلغت وقت النفير حيث يكون الجهاد

(١) رواه الترمذي ، وأحمد .

بالنفس (القتال) فرض عين على كل قادرٍ مهما بذل من مالٍ ومهما سبق له أن دعا أو علّم ، أو ذاق منً الأذى فصبر .

ثم لوكانت تغني النفقة كل حين ، لجاء وقت جلس فيه الذين تصّدقوا ، وانطلق إلى الجهاد الذين لم يجدوا ما يتصدّقون به ، فكان الناس فئات : فئة تضنّ بالنفس وتجود بالمال ، وفئة تجود بالنفس تطلب الأجر ، وربما لا تجد المال . وبالتالي يحدث الانقسام ، والإسلام لا يعرف الطبقية فالناس سواسية كأسنان المشط ، وعندما يكون الجهاد فرض عينٍ لابد من أن ينفر الجميع لتأدية الواجب والحصول على إحدى الحسنيين بنيل الشهادة أو النصر على الأعداء والتمكين للمسلمين .

مشروعية القتال (الجهاد بالنفس) : شرع القتال للدعوة لدين الله ، وتطبيق منهجه ، والتمكين لأهله ، واختباراً لأتباعه . وشرع للقضاء على الشرك عن سطح الأرض ، ولإزالة الظلم ، ثم لردّ العدوان ، ودفع الأذى .

الفصل الأول:

الدعوة إلى الله ونشر الإسلام

خلق الله الخلق ، وبعث منهم رسلاً إلى عباده يرشدونهم إلى عبادته ، ويُوجّهونهم إلى دينه الذي ارتضاه لهم ، وهو الإسلام . ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾[1] قضت حكمة الله أن يرسل في كل قوم نبيّاً منهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكان النبيّ يجد من قومه العنت والمقاومة العنيفة ، وخاصةً من ساداتهم، وأصحاب المصالح والأهواء ، فما يؤمن مع النبي إلا قليل من قومه ، ويكذبه الباقون ، ويؤذونه ، ويتطاولون عليه، وقد يقتلونه .

وقضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون آخر الرسل إلى الناس كافةً ، وأن تكون رسالته جامعةً لما سبقها من رسالاتٍ وناسخةً لها . وهنا يكون إبلاغ الرسالة أكثر عبئاً ، وحملها أكثر مشقةً ، وإيصالها إلى الناس

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٨ .

كافةً أكثر صعوبـةً ، ويحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ بل وإلى صراعٍ عنيـفٍ إذ تقف الأقوام الثـانية ، وأصحاب الـديانات الأخـرى حسداً من عنـد أنفسهم وبغياً، ويدعمهم حكام تلك الأقوام ، وسدنة تلك الديانات ، وأصحاب الأهواء ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل اللـه بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشـاء من عباده فباءوا بغضب علي غضب وللكـافرين عذاب مهين**﴾ [1] . ﴿ **ود كثير مـن أهل الكتـاب لو يـردونكـم من بعـد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق**﴾ [2] .

وقف في وجـه دعوة رسـول الله ، صلى اللـه عليه وسلـم ، إلى الإسلام سادة قومه مـن قريشٍ ، ورؤساء قبائل العرب ، وشرع القتـال ، فقاتلهم، عليه الصـلاة والسلام ، حتى أخضعهـم إما مؤمنين راضين أو بـالسيف مقهوريـن، وقد أرسل الكتب والـرسل إلى ملوك دول تلك الأيـام والأمراء ودعاهم إلى الإسلام فمنهم مـن استجـاب وأسلم ، ومنـهم ردّ ردّاً جميلاً ، وبعث بـالهدايا ، ومنهم مـن قبل الدعوة غير أنـه ضنّ بالملـك ، وخاف رهبان ورجال الكنيسـة ، ومنهم من ردّ ردّاً قبيحاً ، وهدّد وتـوعّد ، ومنهم من أخذته العزّة بالإثم فمزّق الكتاب أو قتل حامله .

وما انتهت أيام رسـول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى كـان قد بلّغ الرسالة ، وأدّى الأمـانة ، ونصح الأمة وجاهد في اللـه حق جهاده . وجاء أمر الله ، وتوفّي رسول الله ، فظهرت الردّة في جزيرة العرب ، وجاء الدعم للمرتدين من خارج الجزيرة مـن الفرس ومن الروم على حدٍّ سواء ، فكان لابدّ من قتال المرتدين ، ولابدّ من ردّ عدوان الذين دعموا أهل الردّة ، ثم

(١) سورة البقرة : الآية ٩٠.
(٢) سورة البقرة : الآية ١٠٩.

لابدّ من حمل رسالة الإسلام إلى الناس كافّةً لتأدية المهمّة الملقاة على عاتق المسؤولين في الدولة الإسلامية .

انطلقت جيوش المجاهدين فقضت على المرتدين أولاً ، ثم اتجه المجاهدون نحو الفرس والروم لتأديبهم على عدوانهم أولاً ثم لحمل رسالة الإسلام إليهم وإلى رعاياهم ، لإخراج من يريد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

وتتابعت جيوش الفتح ، وانتشر الإسلام شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، وتتابعت الانتصارات ، واستمرّ المجاهدون يحملون الدعوة ، ويعملون على نشر الإسلام ، ببيانهم ، وبكلمة الحق ، وبأخلاقهم ، وسلوكهم ، ومعاملتهم ، ويحمون ذلك بالسيف ، ويذودون عنه بالقتال ، ويدافعون عنه بالبرهان عندما تضع الحرب أوزارها ، ويستسلم الأعداء .

ويبقى المسلمون هم الأعلون ما تمسّكوا بدينهم ، وحافظوا على إيمانهم ، ونظفّوا صفوفهم من المرجفين ، المتخاذلين ، والمنافقين ، والذين يغالطون على الرعية بما حفظوا من بعض العلم ، ومادام المسلمون على وضعهم هذا ، فالمجاهدون مرابطون في الثغور يحملون في يدهم كتاب الله ، يتدارسونه فيما بينهم ، ويطبقون أحكامه ، وينقلون ما حفظوا إلى الآخرين ، ويحملون بيدهم الثانية السيف يذودون عن حماهم ، ويحمون إسلامهم ، ويُبلّغون ما ائتمنوا عليه.

والمسلمون يُحبون الخير للناس جميعاً كما يحبّونه لأنفسهم لذا فهم يدعونهم إلى الإسلام ، وهمهم الأول الدعوة لا القتال ، ولكن إذا أبى الأعداء إلا القتال فرفضوا الإسلام ، ورفضوا الصلح ودفع الجزية كان

لابدّ من استعمال السيف . وما اصطف المسلمون لقتال إلا خيّروا الخصم بين ثلاث حالات :

(١) الإسلام : فإذا قبل الخصم الدخول في الإسلام ، كان الذي يريدون، بل كانت الفرحة العارمة إذ يشعر المسلمون أنهم قد أدّوا شيئاً من المهمّة المناطة بهم ، وهي إبلاغ الدعوة ، وعندها يصبح أخاً من كان أمس خصماً ، وأصبح أعداء البارحة جزءاً من الأمّة الإسلامية ، لهم ما لإخوانهم الذين سبقوهم بالإسلام ، وعليهم الذي عليهم . وإنه لنصر عظيم أدّى المسلمون ما افترضه الله عليهم من الدعوة ، وحقّقوا الغاية دون قتالٍ ، ونالوا إحدى الحسنيين ، وهو النصر ، مع ما حصلوا عليه من أجر الجهاد في سبيل الله .

(٢) قبول الجزية : وهذا فيما إذا كان الأعداء من أهل الكتاب أي يهود أونصارى أو من لحق بهم من المجوس ، ولا تقبل الجزية من غيرهم من الكفار ، وذلك أن أهل الكتاب ومن تبعهم يُؤمنون بوجود خالقٍ، وإن كانوا يشركون به بعض مخلوقاته ، أما المشركون عامةً الذين لا يعترفون بخالقٍ فلا تقبل منهم جزية ، فليس لهم إلا الإسلام أو السيف ، أو إذا رضوا اعتناق ديانة أحد أهل الكتاب ومن يلحق بهم .

(٣) السيف : إن لم يكن هناك حلّ إلا السيف ، جرّد المسلمون سيوفهم ، ودخلوا المعركة بعزيمةٍ وقوّةٍ يبتغون رضا الله وثوابه ، فإن صدقوا الله أتاهم نصره بإذنه ، ولا تبديل لكلمات الله : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** ﴾[1] . ﴿ **يا أيهاالذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[2] .

(١) سورة الحج : الآية ٤٠ .
(٢) سورة محمد : الآية ٧.

وياله من نصرٍ رائعٍ ، نصر من الله ، وكفى به نصراً ، فريق من الجانب الإسلامي نال الشهـادة ، وهي أمنية كل مؤمنٍ إذ مـنّ الله عليه بها ، فهو مع الذيـن أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقـاً ، وكان الفريق الآخـر من الجانب الإسلامـي قد نال الحسنى الأخرى فنصره الله على عدوّه ، ومكّـن له في الأرض ، وصار فوق خصمه قاهراً له .

الفصل الثاني:

القضاء على الشرك

بعث الله الرسل ليدعوا الناس إلى عبادة الله ووحدانيته ونبذ كل شريكٍ له أو ندٍّ فأدّوا ما أُرسلوا به ، فإذا قويت دعوة الرسول بدأ في مواجهة المشركين .

وبقي المشركون في جزيزة العرب حتى السنة التاسعة ، ثم نزلت سورة «التوبة » فكانت الدعوة إلى القضاء على المشركين أينما وجدوا ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ..** ﴾[1] وهذا يدلّ على أنه لا يصحّ وجود مشركين في ديار المسلمين أبداً .

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله)[2].

ويخصّص بعضهم عدم وجود مشركين بأرض العرب على أنها حصن ديار الإسلام ، واعتقد أن هذا الرأي مرجوح لـ :

(١)سورة التوبة : الآية ٥. (٢) رواه البخاري - ٢٥ .

١ - إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم يدع مشركاً في أرض العرب ، ولم تتجاوز الدولة الإسلامية في أيامه أرض العرب ، فلو كانت تجاوزت وترك مشركاً خارج أرض العرب لكان ذلك حجّةً ولكن لم تتجاوز . وما أنزل الله في قتال المشركين أينما وُجدوا كافٍ لما ذهبنا إليه.

٢ - لا تمييز بين العرب وغيرهم ، وديار الإسلام واحدة ، ولا تمييز بين أقاليمها ، ولا بين شعوبها ، وعند الاعتداء على إقليمٍ منها ، أي إقليمٍ كان، كان الجهاد فرض عينٍ.

٣ - إن خلفاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من الخلفاء الراشدين المهديين لم يتركوا مشركاً في الأمصار التي دخلتها جيوشهم ، ونحن مُلزمون بالتقيّد بأفعال الراشدين ، والتأسّي بها .

٤ - إن جميع الأمصار التي دخلها المسلمون فاتحين أي زمن قوتهم وتطبيق الإسلام لم يبق فيها مشركون ،وإن الشرك الذي يوجد فيها الآن إنما جاء فيما بعد زمن ضعف المسلمين ، وسيطرة غيرهم عليهم ، وعلى أمصارهم ، وعندما أهملوا شرعهم . على حين نجد أن البلدان التي انتشر فيها الإسلام عن غير طريق الفتح ، أو زمن ضعف المسلمين قد بقي فيها مشركون .

الفصل الثالث:

القضاء على الظلم

لابدّ من تطهير الأرض من الظلم كما طُهرت من الشرك ﴿ **وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً** ﴾[1] .

ومن المؤسف أن بعض الكتاب المعاصرين ، ركّزوا على أن هذا تدخّل في شؤون الآخرين ، ونسوا :

١ - أن رسول اله ، صلى الله عليه وسلم ، بُعث للناس كافةً .

٢ - أن الأرض كلها ساحة العمل الإسلامي .

٣ - أن مساعدة المظلومين ضمن المهمّة المُلقاة علينا ، وهي الدعوة إلى الإسلام . فعند مساعدتهم ، يتساءلون عن سبب هذه المساعدة والدعم والتأييد ، وبالتالي يسألون عن الإسلام وتعاليمه ، ومبادئه ، فنكون قد بلّغنا الدعوة إليهم ، ثم لم يلبثوا أن يُقبلوا على الإسلام ، ويعتنقونه .

---

(١) سورة النساء : الآية ٧٥.

ونسي هؤلاء الكتّاب الـدعوة الإسلامية ، وذكروا السياسـة الدولية ، ولم يعلموا أن الدول الكبرى التي تُسيّر السياسة الـدولية هي التي تتدخّل في الأمصار الإسلامية .

الفصل الرابع:

ردُّ العدوان

إذا وقع اعتداء على بلاد المسلمين أو على جزءٍ منها ، هبّ المسلمون جميعاً لردّ العدوان ، وكان جهادهم فرض عينٍ على كل قادرٍ ، بل قدتشترك النساء وغير المكلفين بالقتال .

وعلى المسلمين أيضاً ردّ عدوان الأعداء إذا حدث اعتداء على جماعةٍ من المسلمين ، أو على أهل الذمّة الذين هم في ذمة المسلمين ، وعليهم حمايتهم ، أو على الذين بينهم وبين المسلمين حلف ، وذلك لتبقى للمسلمين العزّة ، ولهم الهيبة في نفوس الأعداء. ولتبقى ذمتهم محفوظةً ، وعهودهم مرعيةً .

ولا يقف المسلمون موقف المدافع فقط وذلك عندما يهاجمهم الأعداء بل يقومون بالهجوم الوقائي وذلك عندما تصل إليه أخبار عن استعداد العدو للهجوم عليهم أو التفكير بذلك ، كما قام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بالهجوم على بني المصطلق عندما بلغه أنهم يجمعون له . وسار لقتال اليهود بخيبر لما بلغه أنه يعقدون حلفاً مع غطفان لغزو المدينة. وبعث الجيش إلى مؤتة لما قتل شرحبيل بن عمرو الغساني رسول رسول الله ﷺ ، الحارث بن عمير الأزدي . وسار إلى تبوك عندما بلغه أن الروم يجمعون جموعهم في الشام لغزو المسلمين .

إذ لا يمكن لأمـةٍ في الدنيـا ذات مكانـةٍ ولها أعداء ، ويبلـغ قادتها أن أعداءهـم يستعدون ويتهيئون ، ويجمعـون الجموع ، ويعقـدون الأحلاف لمحاربتهـا ، ثم ينتظر أهلهـا حتى يداهمهم الخصـم ، ويدخل بـلادهم ، وبعدها يقومون بردّ العدوان ، والدفاع عن الديار بل لابدّ من ضربهم قبل استعدادهم ، وغزوهم قبل تكامل قوتهم ، وإرهابهم قبل تحرّكهم .

فما غُزي قوم في عقـر دارهم إلا ذلّوا . لذا كان الجهاد والهجـوم الوقائي قبل أن يغزونا الأعداء .